

خطبه الجمعة - الخطبة ٠٤٦ : خ ١ - المحبة - لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألغت بينهم
، خ ٢ - ستعود بلاد العرب جنات وأنهارا.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٦-١١-٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخطبة الأولى :

الحمد لله ثم الحمد لله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كانَ لِهُنَّدِيَ لولا أن هدانا الله ، وما توفيقي
ولا اعتصامي ولا توكلني إلا على الله .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً بربوبيته ، وإرغاماً لمن جد به وكفر .
وأشهد أن سيدنا محمداً صلي الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والبشر ما اتصلت عين بنظر ،
وما سمعت أذن بخبر .

اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وعلى ذريته ومن وآله ومن
تبعه إلى يوم الدين .

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وارزقنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا
الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك
في عبادك الصالحين .

المحبة :

أيها الإخوة المؤمنون ؛ يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القديسي :
لقد اشتندَ شوق الأبرار إلىَّ ، وأنا إلىَّ لقائهم أشدَّ شوقاً .
سبحانك يا ربَّ .

إذا كان عفوكَ يستغرق الذنوب فكيف يكون رضوانك ؟
وإذا كان رضوانك ترکو به النفوس فكيف يكون حبك ؟
وإذا كان حبك يُثير النفوس فكيف يكون ودك ؟
وإذا كان ودك ينسى الإنسان كلَّ ما سواه فكيف يكون لطفك ؟
ابن آدم أطلبني تجدني ، فإذا وجَدْتني وجَدْت كلَّ شيء ، وإن فتُك فاتَك كلَّ شيء ، وأنا أحب
إليك من كلَّ شيء .

أيها الإخوة الأكارم ؛ في سورة التوبة آيةٌ تركتُ في نفسي أثراً بليغاً ، أحياناً يتَّالم الإنسان لما
يرى من خصامٍ بين الناس ، ومن شفاق ، ومن مشاحنة ، وعداؤه ، وأنانية ، وأثرة ، واستعلاء ،
قد يكون هذا الشفاق في الأسرة الواحدة ، قد يكون بين الزوجين ، وبين الشركين ، وبين الأخوين

، وبين الأُسرتين ، وبين الحَيَّين ، وبين العشيرتين ، وبين الْأَمَتَّين ، قال تعالى وهو يصف ما عليه الناس آخر الزمان :

﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

[سورة الحشر الآية : ١٤]

قال تعالى :

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدِيهِمْ فَرَحُونَ ﴾

[سورة المؤمنون الآية : ٥٣]

وَالمنافقون بعضهم غَشَّة متحاسدون ، ولو اقتربت منازلهم ، قال تعالى :

﴿ إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبُّمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا ﴾

[سورة آل عمران الآية : ١٢٠]

هذه الحالات المرضية ، وهذا الشّاق ، والخصومات ، والحسد ، وذلك البغي ، والعداوة ، وتلك
البغضاء ؛ ما أسبابها ؟
أهكذا فَطَرَ الله الناس ؟ لا والله .
أهكذا خلق الله الإنسان ؟ لا والله .

فما أسباب ذلك ؟

مشاحنة في البيت الواحد ، بين الأخرين ، وبين الزوجين ، ما سبب ذلك ؟

الجواب في سورة الأنفال الآية : وأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ

الله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال وفي آية واحدة يجيب عن كل هذه الأسئلة ، قال تعالى :
﴿ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة الأنفال الآية : ٦٣]

لو قال الله عز وجل :
ولكن أَلْفَ بينهم .

المعروف الله سبحانه وتعالى ، لماذا ذكر الاسم الظاهر بدل الضمير ؟
لماذا قال الله تعالى :

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ﴾

أي هذه المودة ، وهذه الرحمة ، والمحبة ، والعفو ، والتضحية ، والمؤاثرة ، واللُّوْدُ الذي بين المؤمنين ، إنما هو من خلق الله سبحانه وتعالى ، فإذا عرف الناس ربّهم خلق الله المودة بين قلوبهم ، وخلق الرحمة ، والبشر ، والمحبة ، والتعاطف ، والتسامح ، والتضحية .

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾

أهذه الكلمة قليلة؟

﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾

من أموال ، لو قدمت له بيته ، يكن لك العداوة ، لو قدمت له شارعا كله محلات تجارية هبة لك ، إن لم تكن هذه الهدية مبنية على الإيمان تتقلب المحبة إلى عداوة ، هكذا سنة الله في الخلق .

هذه الآية تحل كل المشكلات :

ما أقبل الرجل على الله عز وجل إلا جعل قلوب المؤمنين تنساق إليه بالمودة والرحمة .
وما فرق بين اثنين إلا بذنب أصابه أحدهما .

وما تحاب اثنان في الله إلا كان أشدّهما حباً لصاحبه أقربهما إلى الله عز وجل .
كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية جعل للعلاقة بين الناس قانوناً ، ولمطلق العلاقة بينهما قاعدة ، فما دام الطرفان مستقيمين فالله سبحانه وتعالى يخلق بينهما المحبة والمودة ، والتسامح ، والإيثار ، والتضحية ، لا يرتاح المؤمن إلا إلى أخيه المؤمن ؛ يقدم له ماله .

مثال على ذلك : الأنصار والمهاجرين .

فالأنصار أيها الإخوة والمهاجرون مثل حي وواعي ، يؤكد هذه الآية ، كان يأتي المهاجر إلى المدينة فيؤاخى النبي عليه الصلاة والسلام بينه وبين أنصاره يقول هذا الأنثاري يا أخي لي بستانان خذ أحدهما ، لي بيتان خذ أحدهما ، هذا موقف الأنصار ، خذ خصومات في قصر العدل لا يعلمها إلا الله ، ستة آلاف دعوى متعلقة بالبيوت ، مما تفسير ذلك ؟ خلت القلوب من الرحمة ، وخلا الإنسان من الإنفاق ، لا ينصف الناس من نفسه ، يريد أن يعيش وحده ، وأن يسكن وحده في البيت ، أن يكسب المال كله له ، والناس الباقيون لا شأن لهم عنده ما هذه الحالة المرضية ؟
كيف كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ؟ كيف كانوا يحبون بعضهم بعضاً ؟ لأنهم عرفوا الله تعالى ، إذا الدين عامل وئام ، وعامل محبة ، وعامل مودة ، عامل تسامح ، وتضحية ، ورحمة ، وعطف ، فإذا خلا الدين صار الناس كالذئاب ، ينهش بعضهم بعضاً ، وقد تعود عليه الصلاة والسلام من آخر الزمان ، يوم يقع الرجل أباه ، ويوجد صديقه ، يوم تلد الأمة ربتها ، يوم يكون المطر قيضاً ، والولد غيطاً ، وفيض اللئام فيضاً ، ويغيب الكرام غيطاً ، يوم يخون الأمين ، ويؤتمن الخائن ، يصدق الكاذب ، ويكتُب الصادق ، قال تعالى :

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾

[سورة الأنفال الآية : ٦٣]

لو أَنَّ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ أَنْفَقَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُجْزِي ، لَوْ أَنْفَقْتَ يَا مُحَمَّدَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَؤْلُفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ﴾

[سورة الأنفال الآية : ٦٣]

ذُكِرَ لفظ الجاللة بدل الضمير ليكون في هذا تأكيداً .

فِي أَيْهَا الْإِخْرَاجِ الْمُؤْمِنُونَ ؛ مثَلُ حَيٍّ ؛ مَا دُمْتَ مُحِبًا لِلَّهِ ، وَمُسْتَقِيمًا عَلَى أَمْرِهِ فَلَا بَدْ مِنْ أَنْ تُحِبَّ أَخَاكَ الْمُؤْمِنُ ، لَا بَدْ مِنْ أَنْ تَؤْثِرَهُ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

[سورة الحشر الآية : ٩]

هكذا كان الأنصار رضي الله عنهم ، يحبون من هاجر إليهم ، يؤثرون على أنفسهم ، إذا كان الإيمان حل التعاون محل المنافسة ، الآن منافسة ، البيع بيع ضرر ، إذا فتح إنسان دكاناً يأتي من حوله ، ويُحيطون مساعاه ، ويبיעون أقل من التكلفة ، من أجل أن يُبَيَّسَ من هذه المصلحة ، أهكذا المسلمين ؟ كان السلف الصالح إذا جاء الشاري للدكان ، واشترى ، وجاء شار آخر ، قال :

إِسْأَلْ جَارِي فَأَنَا لَقِدْ اسْتَفَتْتَ ! هكذا كان السلف الصالح قال تعالى :

﴿ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة الأنفال الآية : ٦٣]

وَاللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، مَا مِنْ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا أَنْمَنُ مِنْ هَذِهِ الْمَوْدَةِ ، وَالْمَحَبَّةِ الَّتِي يَخْلُقُهَا اللهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا قَاسِيَةٌ ، وَالْحَيَاةُ خَشِينَةٌ ، وَالْمَصَائِبُ كَثِيرَةٌ ، لَكِنَّ الْمَوْدَةَ وَالْمَحَبَّةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ تُنْسِي كُلَّ مُصِيبَةٍ ، وَكُلَّ حَيَاةٍ صَعِبَةٍ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة الأنفال الآية : ٦٣]

الأصل في العلاقة بين الناس المودة والرحمة .

أَيْهَا الْإِخْرَاجِ الْمُؤْمِنُونَ :

الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لَبْعَضَ نَصَاحَةٌ مُتَوَادُونَ وَلَوْ ابْتَدَأَتْ مَنَازِلَهُمْ ، وَالْمَنَافِقُونَ بَعْضُهُمْ لَبْعَضَ عَشَشَةٌ مُتَحَاسِدُونَ وَلَوْ اقْتَرَبَتْ مَنَازِلَهُمْ .

ما تحاب اثنان في الله إلا كان أقربهما إلى الله عز وجل أشد حباً لصاحبه .

وما تحابا اثنان في الله فافترقا إلا بذنب أصابيه أحدهما .

وَمَا أَفْلَى الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا جَعَلَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تَنْسَاقُ إِلَيْهِ بِالْمَوْدَةِ وَالرَّحْمَةِ .
هَذِهِ الْأَحَادِيثُ تَبَيَّنُ لِهَذِهِ الْآيَةِ ، هَذِهِ الْآيَةُ تَنْظُمُ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ النَّاسِ ، الْأَصْلُ فِي الْعَلَاقَةِ بَيْنَ النَّاسِ
الْمَوْدَةِ وَالرَّحْمَةِ ، الْأَصْلُ فِي الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الشَّعُوبِ لِتَعْرَفُوا ، قَالَ تَعَالَى :
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

[سورة الحجرات الآية : ١٣]

الأَصْلُ فِي الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْزَوْجِيْنِ الْمَوْدَةِ وَالرَّحْمَةِ ، قَالَ تَعَالَى :
**﴿وَمَنْ آتَيْتَهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوْدَةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾**

[سورة الروم الآية : ٢١]

هَذَا التَّصْمِيمُ الإِلَهِيُّ ، هَذِهِ فَطْرَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، الْإِنْسَانُ بَعْدَهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى يَمْتَلِئُ قَلْبُهُ قَسْوَةً ،
وَفَضَاضَةً ، وَبَعْدًا ، عَنْدَنِ تَنْشَأُ الْمُشَكَّلَاتُ ، وَتُصْبِحُ الْحَيَاةُ جَيْمًا ، وَالْبَيْتُ جَيْمًا لَا يُطَاقُ ،
الْزَوْجُ يَكْرَهُ الْزَوْجَةَ ، وَيَغْضُبُ لِأَنْفَقِهِ الْأَسْبَابَ ، هِيَ تُكْنَى لَهُ الْعَدَاوَةُ ، تَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ فِي غَيْبِهِ ،
وَيَنْشَأُ الْأَوْلَادُ فِي هَذَا الْجَوَّ الْفَاسِدِ ، وَيَكْفُرُونَ بِالْأُسْرَةِ ، مَا رَأَوْا فِي الْأُسْرَةِ سَعَادَةً لَهُمْ ، لِمَاذَا ؟
لَبَعْدَ الْزَوْجِيْنِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَوْ أَنَّ الْزَوْجِيْنِ أَطَاعُوا رَبَّهُمَا لَتَولَّ اللَّهُ التَّوْفِيقَ بَيْنَهُمَا ، وَجَعَلَ اللَّهُ
بَيْنَهُمَا مَوْدَةً وَرَحْمَةً ، لَكِنَّ الْزَوْجِيْنِ إِذَا عَصَيَا رَبَّهُمَا نَوَّلَ الشَّيْطَانُ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا ، فَيَنْشَأُ الْأَوْلَادُ
فِي خُصُومَاتٍ مَا بَعْدَهَا خُصُومَاتٍ .
أَيُّهَا الْإِخْرَاجُ الْمُؤْمِنُونَ ؟ هَذَا عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ .

أَحَادِيثُ شَرِيفٍ تَحْثُثُ الْمُؤْمِنَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ :

مَوْضِيَّةُ قَصِيرٍ جَدًّا مُسْتَوْحَى مِنْ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الْشَّرِيفَةِ ، فِيهَا يَحْثُثُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الْصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ .

عَنْ أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
(طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)

[أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ]

عَنْ أَبِي الدَّرَداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
(إِنَّهُ لَيَسْتَعْفِرُ لِلْعَالَمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيْثَانِ فِي الْبَحْرِ)

[أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ]

طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ يَسْتَعْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَيْثَانِ فِي الْبَحْرِ .
كَيْفَ يَسْتَعْفِرُ لَهُ الْحَيْثَانِ ؟ وَمَا عَلَاقَةُ الْحَيْثَانِ بِطَلَبِ الْعِلْمِ ؟ وَمَنْ أَيْنَ جَاءَ النَّبِيُّ بِهَذَا الْمَعْنَى ؟
طَلَبُ الْعِلْمِ يَتَعَلَّمُ مَمَّنْ يَعْلَمُهُ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ الرَّحْمَةَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحِ .
أَيْصَطَّادُ الْمُؤْمِنُ السَّمْكَ بِالْمُتَفَجَّرَاتِ ؟ لَا وَاللَّهُ ، يَصْطَادُهَا بِالشَّبَّاكِ ، تَنْجُو الصَّغَارُ مِنْ هَذَا
الصَّيْدِ .

فإذا طلب الإنسان العلم امتلاً قلبه رحمة ، فاستغرت له - وهذا من أبعد الاحتمالات - الحيتان في البحر لأنَّه صادها وفق الشَّرْع .

أيُّوسُ المؤمن على نباتٍ يسبِّح ربَّه؟ لا والله .
أيقطُ زهرةً ليُلقِيَها في الطريق؟ لا والله .

فطالب العلم يستغفر له كلَّ شيء ، حتى الحيتان في البحر ، وطلب العلم أفضَّل عند الله من الصلاة والصيام ، والحجَّ والجهاد في سبيل الله تعالى ، وطلب العلم ساعة خيرٍ من قيام ليلة ، وطلب العلم يوماً خيراً من صيام ثلاثة أشهر ، وطالب العلم بين الجَهَال كالحَيٌّ بين الأموات ، هذا حيٌّ ينبذ بالحياة ، وطالب العلم الله أفضَّل عند الله من المجاهد في سبيل الله تعالى ، وطالب العلم كالغازي والرَّائِح في سبيل الله تعالى ، وطالب العلم طالبُ الرَّحْمَة ، ورُكْنُ الإِسْلَام .

فيما أيها الإخوة المؤمنون ؟ أدعوكم لطلب العلم ، ولا بد من حضور مجالس العلم ، ولا بد من معرفة كتاب الله ، وسنة رسول الله المطهرة ، وأحكام الفقه ، لابد من أن يعرف المسلم كيف يشتري ؟ وكيف يبيع ؟ ماذا يأكل وماذا لا يأكل ؟ وماذا يقول ؟ ومتى يقول ؟ ومتى يسكت ؟ لولا العلم لصار الناس كالبهائم ، وبعض الناس كالبهائم ، حينما لا يطلبون العلم تراهم كالبهائم ، قال تعالى :

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

[سورة الفرقان الآية : ٤٤]

قال تعالى :

﴿ كَانُوكُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدٌ ﴾

[سورة المنافقون الآية : ٥]

قال تعالى :

﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرْكُهُ يَلْهَثُ ﴾

[سورة الأعراف الآية : ١٧٦]

قال تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التُّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

[سورة الجمعة الآية : ٥]

أيها الإخوة المؤمنون ؛ النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الأحاديث المطهرة يدعوكم لطلب العلم ، تعلم إنَّ الله عالم يحب كلَّ عالم ، لعالم واحد أشدَّ على الشيطان من ألف عابد ، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معًا فعليك بالعلم ، رُتبة العلم أعلى الرَّتَب ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيتهُ كُلُّك ، فإذا أعطيتهُ بعضك لم يعطِك شيئاً ، يظلُّ المرءُ عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظنَّ أنه قد علم فقد جهل .

أيها الإخوة المؤمنون ؟ موضوع ثالث يشغل بال الناس ، ما حالة الإنسان إذا جاءه ملك الموت ؟ الأحياء يعرفون مشاكل الحياة ومشكلاتها ، ولكن ساعة الموت لا يعرفها أحد لأن الذي يموت لن تستطيع أن نلقاءه بعد الموت ونسأله ماذا حل به ، كنت مع صديق طبيب سألته قبل يومين ألم يحدث أن مات بين يديك طبيب ؟ فقال : بلى ، قلت : فما الأحوال التي تصيبه ؟ فقال : أحوال عديدة ، تجمعها كلمة الفزع ، أي الميت تبدو على ملامح وجهه الفزع ، والخوف ، والاضطراب ، وأحياناً يهدى ، وأحياناً يقول : لا أريد أن أموت ، أحياناً يُصعق ، قلت سبحان الله تعالى ، فما بال أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ليس واحداً ، بل جميعهم ، حينما كان يأتيهم الموت ، يأتيهم وهو في أحلى حياتهم ، أنا قرأت من فضل الله عز وجل ما يزيد عن سيرة سبعين صحابياً ، الشيء الوحيد الذي يجمع بين كل هذه السير أنهم جميعاً حينما جاءهم الموت كانوا في أسعد لحظات حياتهم ، كانوا مستبشرين ، كانوا يطيقون إلى الموت ، كانوا على آخر من الجمر كي يلقوا الله عز وجل ، فما بال حال الناس اليوم ؟ يفرعون من الموت ، ومن قراءة القرآن لأنها تذكرهم بالموت ! لو أن إنساناً سمعهم كتاب الله يتلى فقال : لا ، يتسامع ، هذا القرآن يتلى عند الأموات ، أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام اسمه سعد بن الربيع ، جاء في السير أنه لما فرغ الناس من قتلهم في أحد ، أي انتهت المعركة ، وتوجه كل من له في المعركة قتيل ، توجه إلى القتيل ليتعرف إليه ليدفعه ، ولينفذه ، لعل فيه رمق ، فلما فرغ الناس من قتلهم في أحد قال عليه الصلاة والسلام : من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ هذا عطف النبي ، لا ينسى صاحباً من أصحابه ، تذكره ، ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ ندب بهذه المهمة أحد الأصحاب ، فذهب رجل من الأنصار إلى ساحة المعركة فوجده جريحاً ، بين القتلى ، وفيه رمق ؛ لم يمُت بعد فقال له : يا سعد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ، فقال سعد بن الربيع وهو يلقط أنفاسه الأخيرة : أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أني في الأموات ، وأبلغ عنّي السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جراك الله عنا خيراً ما جزى نبياً عن أمته ، في أية حالة يعيش هذا الجريح ؟ على وشك الموت بقي له دقائق حتى يموت ، أية حالة يعيشها هذا الصحابي ، حتى يقول : جراك الله عنا خيراً ما جزى نبياً عن أمته ، لأنّه دخل في الجنة ، ولأنّه استشرف الجنّة ، وشارف الجنّة ، وأبلغ قومك عنّي السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ، وفيكم عين تطرف ، يعني إذا استطاع الكفار أن يصلوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي واحد منكم عين تطرف ، فلا عذر لكم عند الله تعالى ، فقال هذا الرجل الأنباري : فلم أُبرح حتى مات ، وإلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فبكى حتى أخذل لحيته ، هذه هي أحوال الصحابة ، إن كنت بطلًا أعمل في الدنيا

عملًا بحيث لو جاءك ملك الموت تكون أسعده الناس ، عندما تكون مؤمناً وتلقى الله مؤمناً ، لا يعنيك بكاء الناس أو ضحکهم ، لا ينبعك عندئذٍ أكانوا في مستوى مقامك أم لم يكونوا ، وازنتُ بين هذه القصّة ، وبين ما قاله لي الطبيب حينما سأله أشهَدتَ موتَ إنسانٍ بين يديك ؟ قال : بلى ، قلتُ : كيف كانتْ أحوالهم ؟ فقال : الفزع ، والخوف ، والاضطراب ، والهذيان ! لأنَّهم أحبووا هذه الدنيا ، ونسوا هذه الساعة .

أيها الإخوة المؤمنون ؛ حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أنَّ ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا فلانتَّخذ حذرا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبَع نفسه هوها وتمتنى على الله الأماني .

والحمد لله رب العالمين

الخطبة الثانية :

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولِي الصالحين ، وأشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم ، اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

بلاد العرب ستعود بساتين وأنهاراً :

أيها الإخوة المؤمنون ؛ عالمٌ من أشهر علماء البيولوجيا ، ومتخصص في المنطقة الواقعة بين إفريقيا وبين الجزيرة العربية ، التقى بعالمٍ مسلم ، سأله هذا العالم المسلم ؛ هل عندك دليل على أنَّ أرض العرب كانتْ بساتين وأنهاراً ، فقال : هذا معروف عندنا ، وهذا شيءٌ يعرفه العلماء المتخصصون ، قال له : ما الدليل ؟ قال : في الجزيرة العربية روابض نهرية ، تلاحظ في أماكن عدّة ، وقد عثِرَ على قرية مدفونة تحت الرمال في الربع الخالي ، وفيها مناطق متحجرة ، وقد عثِرَ على مناطق أخرى متحجرة ، فلما فحصتْ إذا هي جنوح لأشجار كبيرة ، وهذا كله يؤكّد أنَّ هذه البلاد كانتْ بساتين وأنهاراً ، منطقة الربع الخالي ، هذه الصحراء الجرداء القراء كانتْ مفعمةً بالبساتين والأنهار ، وهذا شيء ثابت عند علماء البيولوجيا الذين وجدوا من المستحثات ما يؤكّد ذلك ، هذا العالم المسلم سأله عالمٌ آخر ؛ وهل عندك دليل على أنَّ بلاد العرب ستعود بساتين وأنهاراً ؟ فقال : هذا شيءٌ أيضًا معروفٌ عندنا ، فقال : ما الدليل ؟ قال : إنَّ كتلَ الجليد الضخمة تتّجه نحو الجنوب ، وهذا الذي سبَّب قبل أعوامٍ شتاءً قارساً جدًا في أوروبا وأمريكا ، وإنَّ اتجاه هذه الكتل الجليدية نحو الجنوب سوف يغيّر مناخ الأرض ، وبتغّير مناخ الأرض سوف تتغيّر خطوط المطر ، ولا بدَّ من أن يأتي يومٌ تعود بلاد العرب كما كانتْ ، مُروجًا وأنهارًا ، قال هذا العالم المسلم لهذا العالم البيولوجي : بما قولك أنَّ رجلاً ، قبل ألفٍ وأربع مئة عامٍ

قال: لا تقوم الساعة حتى تعود أرضُ العرب مروجاً وأنهاراً ! دقة الحديث كلمة تعود ، بكلمة تعود ، يعني أنها كانت ، وبهذه الكلمة يعني أنها ستكون ، تعود ؛ يعني كانت مروجاً وأنهاراً وستعود مروجاً وأنهاراً ، هذا حديث صحيح روي عن النبي عليه الصلاة والسلام : لا تقوم الساعة حتى تعود أرضُ العرب مروجاً وأنهاراً .

هذا العالم الأجنبي صُعق ، هذه الحقائق عرفناها في هذه السنوات ، في هذه السنوات العشر ، فما بال هذا الرجل عرف هذه الحقيقة التي تحتاج إلى بحثٍ طويل ، وإلى درسٍ طويل ، وإلى رحلات شاقة في أعماق الصحراء وإلى تنقيب ، ودراسة لطبيعة المناخ في الأرض ، قال تعالى :

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾

[سورة النجم الآية : ٤-٣]

لا تقوم الساعة حتى تعود أرضُ العرب مروجاً وأنهاراً .

وبلاعنة النبي عليه الصلاة والسلام في كلمة تعود ، فلو قال : حتى تصبح معنى هذا أنَّ الماضي لم يدخل في هذا الحديث ، وإذا قال : كانت فالمستقبل لا يدخل ، أما كلمة تعود وحدها أدخل فيها النبي الماضي والمستقبل .

الدعاء :

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت ، وفنا واصرِف عنا شرَّ ما قضيت فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من وليت ، ولا يعز من عاديت ، تبارك ربنا وتعالى ، ولك الحمد على ما قضيت نستغرك اللهم ونتوب إليك ، اللهم هب لنا عملاً صالحًا يقربنا إليك ، اللهم أعطنا ولا تحربنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا ، وأصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشرنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا ، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير ، واجعل الموت راحَةً لنا من كل شر ، مولانا رب العالمين ، اللهم اكفنا بحالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك ، اللهم لا تؤمننا مكرك ، ولا تهلك عنا سترك ، ولا تتسبنا ذكرك ، يا رب العالمين ، اللهم إننا نعوذ بك من عُضال الداء ومن شماتة العداء ، ومن السُّلُب بعد العطاء ، يا أكرم الأكرمين ، نعوذ بك من الخوف إلا منك ، ومن الذل إلا لك ، ومن الفقر إلا إليك ، اللهم بفضلك ورحمتك أعل كلمة الحق والدين وانصر الإسلام وأعز المسلمين ، وخذ بيده ولاتهم إلى ما تحب وترضى إنه على ما تشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين